التصوّف

قال افلاطون الحكيم " عالَم الكون والفساد شبيه بمغارة مظلمة بعيدة المهوى وفي اعلاها طاق يدخل اليها منهُ شيءٌ من الضياء فما قرب من الطاق اضوأُ ممَّا بعُد عنهُ . وفيها جماعة يبيعون ويشترون ويتعاشرون قد انسوا بظلمتها واستعملوا مقاييس لنقودهم اكثرها فاسد فتطلعت نفس واحد من تلك المغارة الى الصعود الى موضع الضوء والتماس ما يبعثهُ فصعد حتى قرب من الطاق وكانت معهُ دنانير ودراهم ممَّا يستجيدونهُ في المغارة ويجري عندهم مجرى ما ارتفع الريب فيهِ فتأملها حيث انتهى بهِ الصعود فوجد بعضها جيداً وبعضها رديئاً فميز رديئها من جيدها ونزل الى المغارة فعرض الجياد على نقّاد المغارة فاعترفوا بجودتها فاخرج اليهم الرديئة وسألهم عنها فاستجهلوهُ وقالوا ما بين الاولى والثانية فرقٌ . فضحك منهم وقال لهم ما اشك في انها رديئة فقالوا كيف هذا وما دليلك عليهِ فقال رأيتها في هذا الضياء واوماً بيدهِ اليهِ . فاستثقل المستوطن للمغارة مقالهُ واخذ في الردّ عليهِ وكذَّبهُ ونازعهُ قوم فشرعوا يصعدون الى الضياء فمنهم من شقَّ عليهِ الصعود فرجع ومنهم من صار معهُ الى موضعهِ فصدَّقهُ فصاروا فيما يتعاملون بهِ ثلاثة اصناف رجل لم يُفكر فيما جاء بهِ الصاعد واقام على ما جرى عليهِ سلفهُ غير مرتاب بشيءٍ من تلك النقود وهم اصحاب التقليد الساكنون الى ما أُمروا بهِ وآخرون ينازعون الصاعد وهم اصحاب الجدَل الذين ضعفوا عن الرياضة وقووا على المنازعة وآخرون قد وافقوا الصاعد بما شاهدوهُ معهُ وهم خدم العقل الذين رقوا اليهِ بالمقدمات والنتائج وهاجروا في طلب المعقولات ولم يستثقلوا البحث عن الحقائق "

هذه الحكمة تنطبق على كثير من حقائق العلم والعالَم وما اقلَّ اهل الفئة الثالثة من خدمة العقل الذين ركبوا كل صعب وذلول للوقوف على الحقائق اما النسّاك الاوليان فهما كالانعام السائمة وما حظهم من إمتاع النظر بنور الحق الاَّ حظ اتباع ايقورس اليوناني القاضي بان لا عمل للانسان في هذه الحياة الاَّ الاكل والشرب والنوم والملاذّ اما العقل فلغو لافائدة فيهِ

ومن العجيب انك قلما ترى فئة من الخلق الاَّ راضية بما أُتيح لها من اقتباس قبَس من هذا النور واهل التصوّف لم يخرجوا في ادعاء الوصول اليهِ عن الحد الذي جرى عليهِ جميع اهل الملل والنحل قديماً وحديثاً . ولقد اختلفت الآراء في الحكم على اهل هذه النحلة لما رأوا ان معظم كتبهم ضرب من المعميات والطلسمات مبنية على ما يخالف الحسَّ وينافض القواعد المألوفة حتى سماهُ بعض الافرنج " العلم الخفي " لان اقوالهم تفسر بالاذواق وهي مما لا جدال

في اختلافها وهاءنذا آتي على طرف من تاريخ التصوّف واهلهِ استمدها من اسفار الثقات

قال السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ "ان سبب تسميتهم بالصوفية لبسهم الصوف او لأنهم لما آثروا من الانكسار كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية او لانهم في الصف الاول بين يدي الله عزّ وجل او ان الاصل في اسمهم صفوي او نسبة الى الصُّفة — وهو موضع مقتطع من مسجد النبي مظلل عليهِ كان الاوفاض والاخلاط من الفقراء يأوون اليهِ — قال ولم يعرف هذا الاسم الى المائتين من الهجرة العربية ..... ثمّ لما تقادم زمان الرسالة ونأى عهد النبوة وكدر شرب العلوم شوب الاهواء وتزعزعت ابنية اليقين واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكشف حجابها وكثرت العادات وتمكنت اربابها وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها تفرّدت طائفة بأعمال صالحة واحوال سنية وصدق في العزيمة وقوة في الدين وزهدوا في الدنيا ومحبتها واغتنموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون اخرى اسوة بأهل الصفة تاركين للاسباب متبتلين الى رب الارباب"

وقال السيد عبد الحميد الزهراوي من المتأخرين "التصوف لفظ يتحلهُ اسمًا لمعارفهم ناس خلطوا اذ بحثوا في الفلسفة الالهية بين ايراد كلام الفلاسفة الالهيين من القدماء وبين الشواهد القرآنية وامثالها من الكلم النبوية . واخترعوا اصطلاحات صرفوا بها الالفاظ اللغوية عما وضعت لهُ صرفًا لم يراعوا فيهِ العلاقة العربية والقرائن الدالة . ولا نقدر ان نعين اول من كتب بهذه اللغة على هذا النحو ولكننا نعلم انهُ بعد ان دونت فيهِ الكتب غلا فيها اهلهُ واغرقوا في التأويل وصرف الالفاظ فعبثوا بالفلسفة والدين معًا . وكذلك يتحلهُ اسمًا لعاداتهم وعباداتهم المخصوصة ناس آخرون اقتبسوا شيئًا من كلام الذين سلف ذكرهم وشيئًا من كتب السير والمناقب واخترعوا اشياء أُخر وأطلقوا هذا اللفظ على الملفق من الجميع وربما أحبّ هؤلاء ان يُطلقوا على انفسهم اسم الفقراء ثم ابدلوا هذا الاسم باسم دراويش لغلبة العجمة على القوم"

وانت ترى بين كلام المتقدم وكلام المتأخر فرقًا طفيفًا في التعبير عن حال المتصوفة وان كان الاول معتقدًا والثاني منتقدًا على ما يظهر . ويمكن ان يقال على الجملة ان التصوف نشأ عقيب ما ثار ثائرهُ من الفتن بين اهل الاسلام في القرن الاول والثاني وغلبت المطامع على رجال سياستهِ وعندها تجافت نفرة من اهل التقوى عن الدخول في غمار هذه المطامع والاشتراك في اذكاء نار الشرور فآثروا العزلة وانقطعوا الى العبادة والزهادة مثل ابي القاسم الجنيد والحسن البصري وابرهيم بن ادهم وابي يزيد البسطامي وسهل بن عبد الله التستري

وبشر الحافي واضرابهم ممن صدقوا في نسكهم وكانوا على جانب من علم السنة فلم يتعدوا مراسيم الشريعة وكانوا احسن قدوة اهتدى بها كثيرون . وما برحت الاعوام تنقضي الى ان أُحق بهذه الفئة كل مهوّس كسلان ويظهر أن اجزاء التصوف تكاملت في القرن الخامس

ولما رجعت الامة الاسلامية القهقرى وفسدت آدابها وعلومها بتوالي الحكومات التي حكمتها بسلطان الجهل أخذ بعض الحكام خصوصاً ملوك الطوائف يتذرعون بالمتصوفة تمويهاً على الناس واستعانة بالعامة على الخاصة بدعوى الاحتفاظ بالدين وعندها اخذ القوم يضعون التآليف في هذا الفن وتوسعت دائرتهُ بعد ضيقها والعلم كما قال ابن سينا نقطة كثّرها الجاهلون . ثم تعددت المناحي والمنازع وان لم ينكر بعضهم على بعض شيئاً ونقاسموا بينهم المقامات السنية وادّعوا الوصول الى العلوم اللدنية والكسبية

واختلفت الآراء في منشإ التصوف او الفلسفة الالهية قبل الاسلام فقال قوم انهُ نشأ في الصين واقتبسهُ مجوس الهند وعنهم اخذهُ الفرس فادخلوهُ في الاسلام لمّا اعتنقوهُ وصبغوهُ بصبغة دينية كما دسوا كثيراً من البدع التي لم تقرّها الشريعة . على ان التصوف لا تخلو منهُ أمة مهما كانت نحلتها وملتها وان لم تسم نفسها بهذا الاسم واليك ما قالهُ الزهراوي في هذا المعنى مخاطباً :

" يا هؤلاء اقرأوا شيئاً من تاريخ الامم عامة ثم تاريخ هذه الامة المحمدية خاصة يظهر لكم ان كل امة قام منها افراد قليلون صادقون بالتنسك على ما تعلموا في دينهم وتعظمهم العامة لتخليهم عن دنياهم ثم قلدهم جماعات كثيرة في الزي والاصطلاح ابتغاء رضوان العامة ورجاء ثوابهم لديهم . واقرب شاهد لديكم رهبان النصارى المتبتلون في الصوامع ففيهم الصادق في نسكهِ النظيف قلبهُ وفيهم المائن المحتال الملوّث قلبهُ وكذلك رهبان مجوس الهند والصين ويظهر لكم ان هذه الحال لا يخلو عنها زمن من الازمنة ولا امة من الامم وان هذه الامة المحمدية طرأ عليها ما طرأ على غيرها من كل شيء "

وجاء في مجلة المنار الاسلامي " ان بعض المؤرخين عدوا الصوفية من الفرق المنشقة من الاسلام المخالفة لسائر الفرق في الاصول كالمعتزلة والشيعة واهل السنة . وكيف لا وقد عاملهم فقهاء اهل السنة وحكامهم بأشد ما عاملوا بهِ سائر الفرق فحكموا ببدعة بعضهم وكفّروا كثيراً من اكابر شيوخهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم غلوا بعد ذلك في تعظيمهم والتسليم الاعمى لهم غلوّاً كبيراً . قال ولهم علوم كثيرة جدًّا تعلم اسماؤها من كتاب الفتوحات المكية وانما جاءهم ذلك من الرياضات والمجاهدات النفسية والعناية بمعرفة ما انطوى عليهِ الروح الانساني من الخواص

والمزايا والقوى الادراكية والتأثيرية ومن ذلك ما يحمونهُ الكشف والامداد والتصرف بالهمة . وكل هذا من علم اسرار الكون وطبائع الخلق كالعلم بنواميس النور الكهربائي وخواصهما ولكنهُ لما جاء بصبغة دينية من رجال الدين حدث عنهُ من حط الفقهاء والحكام على اهلهِ وتكفيرهم وسفك دمائهم كما فعلوا مع الفلاسفة الذين بحثوا في بقية اسرار الخلق وصبغوا علمهم بصبغة الدين وخلطوهُ بعلم العقائد الذي سموهُ علم الكلام وكان اضطهادهم للصوفية اشد من اضطهادهم للفلاسفة كما يعلمهُ من قرأ التاريخ وما ذلك الاَّ لان علم الصوفية الغريب عن فهم الفقهاء امتزج بالدين بل هو ثمرة التمسك بفضائل الدين وآدابهِ كما يقول عامة اصحابهِ ولذلك مزجوهُ بالقرآن والسنة مزجًا ولكن جاء بعضهُ مخالفًا لظاهر الشرع " اهـ

اما الدين المحمدي فلا يقرُّ شيئًا مما يقوم بهِ المدّعون للتصوُّف من الاذكار والاوراد المصطلح عليها والتبتل والسماع والرقص ورفع الاعلام وضرب الطبول واظهار الكرامات التي يزعمون مثل مسك الثعابين والحيَّات ودخول النار وأكلها وبلع قطع الحديد والزجاج والآنية واستعمال السلاح لضرب البطون وإدخال المُدَى والادوات الجارحة في الافواه والحلوق اضف الى هذا ما يأخذون انفسهم بهِ من التوكل وترك السعي والعمل للعاش والتساهل بالفروض والواجبات والوقوع في الاباحة والقول بالحلول او إجهاد النفس في التريُّض والتقشف الى غير ذلك من الحالات التي انكرها حجة الاسلام الغزالي في كتابهِ احياء علوم الدين وسماها الطامَّات وانكرها انكار كثير من علماء الاسلام وقوع الكرامات من الاولياء

ومن درس تاريخ الصدر الاول يتضح لهُ جليًّا ان هذه الاعمال التي يأتيها اكثر المتصوفة لم تعهد زمن الرسول ولا زمن اصحابهِ وتابعيهم الى ما بعد القرن الثالث وقد رأينا خاصة المسلمين في ذينك القرنين عالمين عاملين بعيدين عن الخيالات متدينين بما رسمتهُ الشريعة بقلب سليم . عهدنا ابا ذرّ الغفاري من كبار الصحابة منفيًّا زمن الخلفاء الراشدين الى الرَّبذة من اعمال المدينة لانهُ كان يميل الى قلة العمل والانصباب جملة واحدة على التعبد وترك الدنيا ولما شرع يدعو الى مذهبهِ أبعد مخافة ان تسري دعوتهُ الى غيرهِ من عامة المسلمين فيصبحوا آفة على العمران والانسان

وغير نكير ان علم التصوُّف لو وقف نبهِ اهلهُ عند حدّ ادب النفس ولم يخلطوا فيهِ الفلسفة الالهية وطرقًا شتَّى وراء الطبيعة لكان فيهِ فائدة تنجع في تهذيب الاخلاق . وقد ذهب اناس من عقلاء المسلمين والباحثين في ادوائهم ان التصوُّف على هذا الطرز المعهود اليوم هو من جملة عوامل التخريب في جسم الامة الاسلامية وان رؤساء هذه الطائفة يقدرون ان ينفعوا بمريديهم

الاسلام كثيرًا وقد سمعت واحدًا منهم يتلهف على إدخال الاصلاح الى هذه الطبقة من الناس ويعلق عليها آمالاً كبيرة وشواهدهُ من التاريخ انهُ لم يعهد في المسلمين جمعيات منظمة يعمل مرؤوسوها باوامر رؤوسها الاَّ هذه الطرق وان بعض الملوك قديمًا تذرعوا بمشيخة الطرق على عهدهم فاستخدموهم ومريديهم في اقامة حكومات كبيرة وتوفقوا الى ذلك كل التوفيق . هذا ما سمعتهُ مرارًا من فم ذاك العلامة اثبتهُ للقراء غير جارح ولا معدّل . ولعلَّ فئة من الكتاب تتفضل بنقد ما سطرتهُ والله حسبي

بحَّاث دمشقي

الحياة كلها جهاد

تعب كلها الحياة وما اعجب الامن راغب في ازدياد

ليس هذا معنى مخترعًا انشأهُ التخيل وانتجهُ الغوص في تطلاب المعاني وانما هو معنى لا تغيب عن العين شهادتهُ ولا تتوارى عن الحس حالاتهُ ولكنها نفثة اختلجت في صدر ناظمهِ حين رأى الحياة ظلاًّ زائلاً وسنادًا مائلاً راحتها عناء ونعيمها شقاء شغلت بجهادها ابناءها فسعوا دائبين ومروا جاهدين يتطلبون الراحة من التعب والنعيم في النصب . وهذه سنة الكون جهاد قائم ونزاع دائم لم يقم لولاهُ هذا الكون العظيم ولم ينتظم هذا السمط البديع بل لولاهُ لم ترتق الكائنات ولم نسم المخلوقات ولا عُرف الحقير من العظيم ولا الفضيلة من الرذيلة

تصوَّر الانسان في فلاة القدم وصحراء الازل عاري الجسد منبوذًا في العراء خاوي الوفاض بادي الذلة لا سلاح بيدهِ ولا ناصر يحميهِ يتطلب مكنًا يكنهُ وملبسًا يسترهُ ومطعمًا ومشربًا حواليهِ حيوانات سبقتهُ بوجودها وباهتهُ بعديدها . هي مستورة وهو عاريهِ وهي شاكية انيابًا واظفارًا ومناسر وهو اعزل يراها بين فاتكٍ يحدد نابهُ وبدلٍ بخليهِ وفاتنٍ يمرح بظرفهِ ويتباهى بحسنهِ وبدلٍ بجمالهِ وسادر في خيلائهِ وسادل ثوب كبريائهِ وسانح وبارح ومقيم وسارح . وطائر يطير بين مستعظم كبير ومتضائل صغير وهو بينها ضعيف القوى بادي الضنى . الاَّ ان ارتقاء عقلهِ بطرق تخيلهِ وتحيلهِ وقاهُ منها وسوَّدهُ عليها

ثم اعد اليهِ نظرًا وهو يسمو كبرًا ويختال عجبًا يشيد القصور ويبني الصروح ويقيم البروج تضاءل لهُ كل متجبر وذل لديهِ كل عاتٍ وملك اقطار الارض وآفاق السماء فسخر الحيوان ووطئ ظهر الماء وركب متن الهواء حتى اذعن التيار لسلطتهِ وذل البخار لقوتهِ وخضعت الكهربائية لسطوتهِ سخرها لطاعتهِ واقامها لخدمتهِ وطيء اكنافها فانقاد ايُّها واطاع عصيُّها . فهل هذا